

التوحيد: غاية الخلق وأساس النجاة والإصلاح



الأحد 30 أغسطس 2026 05:00 م

تُعَدُّ كلمة «لا إله إلا الله» كلمة التوحيد والإسلام، ومفتاح دار السلام، وبراءةً من الشرك، ونجاةً من النار، ومعناها الإيمان بوحداية الله عز وجل في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته؛ فلا شريك له في ملكه وتدبيره، وهو سبحانه المستحق للعبادة وحده وقد خلق الله الخلق، وأرسل الأنبياء والرسل، وأنزل الكتب؛ من أجل توحيده وعبادته وإفراد الدين له، ولذلك كان التوحيد أصل دعوة الرسل جميعًا، وأساس العقيدة التي تصلح بها حياة الإنسان وتستقيم بها صلته بربه وبالناس.

وقد دعا كل رسول قومه إلى التوحيد الخالص بأقرب الطرق وأيسرها على أفهامهم، حتى جاء خاتم الرسل ونبي الإنسانية كافة، محمد صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عليه القرآن هدى وشفاء ورحمة للمؤمنين، وداعيًا إلى عقيدة التوحيد بمنهج واضح يناسب مختلف الناس والفئات وكان الصحابة رضي الله عنهم يتلقون هذه العقيدة من القرآن الكريم مباشرة ومن النبي صلى الله عليه وسلم، فأدركوا مكانتها العظمى في إصلاح النفوس ونشر الطمأنينة والاستقرار في حياة الناس وفي ربوع الأرض.

مفهوم التوحيد ومكانة كلمة «لا إله إلا الله»

التوحيد هو إفراد الله تعالى بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وإخلاص العبادة له وحده، ونفي الشريك عنه في ملكه وتدبيره وعبادته ومن ثم فإن كلمة «لا إله إلا الله» ليست مجرد عبارة تُقال باللسان، بل هي شهادة تتضمن نفي العبادة عما سوى الله، وإثباتها لله وحده، مع الإيمان بمقتضاها والعمل بها.

وتُعَدُّ هذه الشهادة أصل الدين وأساسه، وعنوان النجاة وبرهان الفلاح، وسبب النجاة من النار ومغفرة الذنوب، ومفتاح دخول الجنة وكلما ازدادت معرفة العبد بالله تعالى كانت عبادته أكمل وأعظم، إذ لا تصح العبادة ولا تُقبل على الوجه الصحيح من غير توحيد.

التوحيد غاية خلق الجن والإنس

يُبين الله تعالى أن الغاية العظمى من خلق الجن والإنس هي عبادته وحده، فقال سبحانه: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [سورة الذاريات: 56].

فالآية الكريمة توضح أن حياة الإنسان لا تستقيم إلا بتحقيق الغاية التي خلقه الله من أجلها، وهي إفراد الله بالعبادة، والخلص من الشرك بجميع صوره وأشكاله.

دعوة الرسل جميعًا إلى التوحيد

كان التوحيد هو المحور الجامع لدعوات الأنبياء والمرسلين، فقد قال الله تبارك وتعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّبْنَا عَلَيْهِ الضَّلَالَةَ ۚ فَمُسِيرًا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) [سورة النحل: 36].

وقال سبحانه: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) [سورة الأنبياء: 25].

ومن أمثلة دعوة الرسل إلى توحيد الله ما جاء في خطاب هود عليه السلام لقومه، قال تعالى: (وإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۖ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ) [سورة الأعراف: 65].

فهذه النصوص تؤكد أن التوحيد هو الكلمة الأولى التي دعا إليها الأنبياء أممهم، ومن أجله أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ومن أجل تحقيقه تقوم الحجة على الناس، وتظهر آثار الإيمان في الدنيا والآخرة، فيُعبد الله وحده ولا يُشرك به، ويُطاع فلا يُعصى، ويُشكر فلا يُكفر.

حق الله على عباده والتحذير من الشرك

ورد في الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار، فقال لي: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟» قلت: الله ورسوله أعلم قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً». قلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا».

وبين هذا الحديث العظيم أن حق الله على عباده جميعاً هو أن يعبدوه وحده، وألا يجعلوا له شريكاً في العبادة، كما يبين فضل التوحيد وخطر الشرك؛ فالمؤمن مطالب بأن يتجرد من الشرك صغيره وكبيره، لأن من أشرك بالله فقد عرّض نفسه للخسران في الدنيا والآخرة.

آثار التوحيد في إصلاح الفرد والمجتمع

التوحيد من أوجب الواجبات وأعظم العبادات، وقد رتب الله لمن حققه الثواب العظيم والأجر الجليل في الدنيا والآخرة وهو ليس قضية نظرية مجردة، بل عقيدة لها آثار مباشرة في النفس والمجتمع؛ فكلما استقر توحيد الله في القلب ازداد العبد إخلاصاً وطمأنينة وثباتاً، وانعكست هذه المعاني على سلوكه وعلاقاته وحياته العامة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض، فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسلب عدو وغير ذلك، فسببه مخالفة الرسول والدعوة إلى غير الله، ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه عموماً وخصوصاً».

وعليه، فإن صلاح الأفراد والمجتمعات مرتبط بسلامة العقيدة وصحة التوجه إلى الله تعالى، كما أن صور الفساد والاضطراب والفتن ترتبط بالابتعاد عن هدي الرسول صلى الله عليه وسلم، وصرف شيء من العبادة لغير الله، أو تقديم الأهواء والمناهج المخالفة لما جاء به الوحي.

التوحيد فطرة الله وشرط النصر والاهتداء

التوحيد هو فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها، ولا يخالف هذه الفطرة إلا من عرض لفطرته عارض فأفسدها وهو شرط في النصر والتمكين والأمن والاهتداء، وبه يتميز الناس إلى مؤمن وكافر، وتظهر حقيقة الانتماء إلى الإسلام في إخلاص العبادة لله تعالى والبراءة من الشرك.

ويجني المسلم ثمار التوحيد في حياته، وعند موته، وفي قبره، ويوم حشره؛ إذ يكون التوحيد سبباً في دخول جنات ربه ونيل رضوانه، كما أنه أساس قبول الأعمال ورفع الدرجات وكلما كان العبد أصدق توحيداً وأعظم إخلاصاً، كان أقرب إلى رحمة الله وفضله، وأبعد عن أسباب الخسران والضلال.

فضل التوحيد وثمرته في النجاة من النار

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله».

ويظهر من الحديث أن النجاة لا تكون بمجرد التلفظ بالكلمة مع إهمال معناها ومقتضاها، بل لا بد أن تُقال إخلاصاً لله تعالى وابتغاءً لوجهه، مع تحقيق ما تدل عليه من توحيد الله وعبادته وحده، واجتناب الشرك والرياء وسائر ما يناقض الإخلاص.

مسؤولية الدعوة إلى التوحيد

لأن التوحيد هو غاية الخلق وأصل الدين وأساس النجاة، فإن قضية التوحيد قضية عظيمة ينبغي أن تُصرف الأعمار والأوقات والأموال في نصرتها، والدعوة إليها، والدفاع عنها، والحرص على كل ما من شأنه نصره هذا الدين العظيم وتكون الدعوة إليه بالحكمة والعلم والرفق، وبيان معانيه وآثاره، وتحذير الناس من الشرك ووسائله، مع التأسّي بمنهج الأنبياء والرسل في مخاطبة أقوامهم.

كما ينبغي للمسلم أن يبدأ بإصلاح نفسه وتحقيق التوحيد في قلبه وعبادته وسلوكه، ثم يسعى إلى تعليم أهله ومجتمعه، مستحضراً أن أعظم ما يُقدّم للناس هو دعوتهم إلى الغاية التي خلقهم الله من أجلها، وتعريفهم بربهم، وتوجيههم إلى عبادته وحده لا شريك له.

خاتمة

يتضح أن التوحيد ليس باباً من أبواب الدين فحسب، بل هو الدين كله وأساسه، وغاية خلق الجن والإنس، ومحور دعوة الأنبياء والمرسلين فيه تُقبل الأعمال، وتصلح النفوس، وتستقيم المجتمعات، ويتحقق الأمن والاهتداء والنصر، وبه ينال العبد النجاة في الدنيا والآخرة ولذلك يجب على المسلم أن يتعلم معنى «لا إله إلا الله»، وأن يحققها علماً واعتقاداً وقولاً وعملاً، وأن يحذر كل ما يناقضها أو ينقص كمالها.

إن تحقيق التوحيد يقتضي إخلاص العبادة لله تعالى، واجتناب الشرك صغيره وكبيره، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، والدعوة إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة فالتوحيد أمانة في أعناق المسلمين، ومسؤولية دعوية عظيمة، وسبيل لإحياء القلوب وإصلاح الواقع ونيل رضوان الله تعالى.